مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 663-676

خطاب رمضان حمود الأدبي بين الإصلاح الشعري والإصلاح الاجتماعي

Ramadan Hammoud's literary descoure between poetic reform and socail reform

الرحموني بومنقاش*
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 (الجزائر).
البريد الالكتروني المهني: r.boumengache@univ-setif2.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/27	2022/03/17	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى تبيان انتقال الخطاب الإصلاحي للشاعر والناقد الجزائري رمضان حمود من إصلاح الشعر -ومن ثمة الكتابة والقيم التربوية والفنية والسلوكية- إلى إصلاح المجتمع، وذلك باستخدام منهج التحليل الثقافي القائم على التوسل بالسائد الثقافي لفهم الخطاب. مستعينا بآلية الحفر في خطابه الأدبي تارة، وبالآليات النسقية تارة أخرى، وتطبيقها على العينة الشعرية لرمضان حمود، متمثلة في مجوعة من قصائده الشعرية وخطاباته النقدية، وقد تم التوصل الى النتائج التالية: حاول حمود النهوض وإصلاح الراهن الشعري، ومن ثمة تغيير الذائقة عند المتلقي وإصلاح حالته النفسية الوجدانية، وفي ضوء هذه النتائج تقترح الدراسة إعادة قراءة كتابات الرجل في ضوء الرؤية الإصلاحية التي تبناها.

الكلمات المفتاحية *الإصلاح الشعري ؛الشعرية ؛ النقد ؛الإصلاح الاجتماعي .*

Abstract: This research aims to show the transition of the reformist discourse of the Algerian poet and critic R.hamoud from reforming poetry and then writing, educational, artistic and behavioral values to reforming society, using the cultural analysis approach based on begging the cultural prevalent to understand the discourse. Using the mechanism of drilling in his literary speech at times. And the systemic mechanisms at other times, by applying them to the poetic sample, represented in a group of his poetic poems and critical speeches, and the following results were reached: Hammoud tried to recover and reform the poetic present, and then change the taste of the recipient and reform his psychological and emotional state. In light of these findings, the study suggests re-reading the man's writings in the light of the reformist vision he adopted.

Keywords: *poetic reform ; poetic ; critic; socail reform .*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

يراد بالإصلاح الشعري فكرتين رئيسيتين: إصلاح الشعر والنهوض به من براثن التقليد والتخلف؛ ويعني اتخاذه وسيلة إصلاح اجتماعية وتربوية، وقد كان الشعر منذ القديم آلية من آليات البناء الاجتماعي والتربوي، وأصبح في العصر الحديث أبرز الطرائق في التقويم اعوجاج الشعوب ومحاولة النهوض بها، وقد مثل هذا التيار لفيف من الشعراء ضمن ما يعرف بالشعر الاجتماعي؛ فقد اشتهرت الكتابة في القضايا الاجتماعية في العراق على يد معروف الرصافي وجميل الزهاوي، وفي مصر: حافظ ابراهيم وأحمد شوقي، وفي المهجر إليا أبو ماضي، وفي الجزائر محمد العيد آل خليفة والأمير عبد القادر الجزائري و رمضان حمود وغيرهم، وقد توجه هؤلاء الشعراء إلى تناول القضايا الاجتماعية بدافع إصلاحي تربوي.

وستحاول الورقة أن تقف عند أحد أقطاب الإصلاح الشعري والاجتماعي في العصر الحديث؛ ونعني به رمضان حمود؛ الذي ظل شخصية مغمورة لم يتناولها بالبحث والدراسة إلا قليل من الباحثين، كما مثل المصلحين الشباب؛ بعده شخصية بكّرت لفعل الاصلاح ومارسه ولم يتجاوز الثلاثة والعشرين من عمره، وقد كان شاعرا وناقدا، مصلحا ومفكرا، رأى فيه "محمد ناصر" في كتابه "رمضان حمود حياته آثاره" شخصا محافظا على التراث بعقلية معاصرة، سابقا لعصره بشخصية متأصلة. وقد نشر حمود سلسلة مقالاته" حقيقة الشعر وفوائده" "الترجمة وأثرها في الأدب" في جريدة الشهاب سنة 1927، وأخرج كتابه "بذور الحياة" عام 1928، وقصته "الفتى" وأشعاره في جريدة وادي ميزاب سنة 1929. وقد توفي في ريعان شبابه وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره.

إن الحديث عن الشعرية عند رمضان حمود هو حديث عن الأدب الجزائري، والحاجة الملحة التي تفرضها الدراسة في معرفة الشعرنة في الخطاب الأدبي الجزائري،

ذلك أنها بحث في القيم الثقافية والفكرية الأصيلة للشخصية الوطنية الجزائرية، فالشعر عموما والأدب خصوصا هو أحد أهم ركائز الشخصية الثقافية الوطنية، والبحث في مجاله يعد بحثا أصيلا مرتبط بالكيان الثقافي للمجتمع الجزائري العربي المسلم.

إن هذه الحاجة لها سياق إثبات الذات في عالم الرقمنة والعولمة، وتحديد هوية هذه الذات وتدعيم أركان بقائها واستمرار صمودها، فالشعر الجزائري كغيره من آداب الأمم المختلفة، يمتاز بخصائص فنية ولغوية تجعله يرتبط ارتباطا عضويا بهموم وآمال الإنسان الجزائري دون سواه، ويرتبط بالإنسانية حيث كانت بوصف الشعر رسالة إنسانية عالمية، وهنا نجد أن مقومات تشكل شعرية خاصة بالشعر والشعراء الجزائريين واضحة الأركان لها ما يدعمها وينميها.

تشكل الخطاب الشعري الجزائري وفق نظام بنيوي مخصوص، يعبر عن تجربة متميزة لأحداث محلية مشاركة وتحليلا. وهي إذ تحاول ذلك، فهي ترصد تاريخ الوقائع التي حدثت وتحدث فيه، لأنها تهتم بالدرجة الأولى بتسجيل البنيات النصية في مقابل بنيات تاريخية واجتماعية ونفسية، وعلى هذا يفترض تحليل البنية الشعرية الجزائرية معرفة التاريخ السياسي والثقافي الجزائري، واستقصاء لحظات التحول في هذا التاريخ وانعكاسه على الايقاع الشعري ذاته. ومعرفة كل ما يساعد على رصد البنيات الظاهرة والخفية لهذه الشعرية.

1. رمضان حمود وتجديد الشعرية:

كانت حركة النهضة والتجديد في الشّعر العربي في عموم الأوطان العربية قد بدأت في أواخر الأربعينات، حاملة لواء النهوض بالحياة الشعرية وإعادة بعثها تحت مسمى الإحياء، أو القطيعة والتمرد على الماضي ضمن مسمى النهضة والحداثة، و لم تكن في جوهرها " إلا موقفاً فنيا تحرريا أملته مواقف وحاجات إلى التّعبير عن الحياة الجديدة في أعقاب الحرب الكونية الثانية" (الكبيسي،1973، 15)، وقد كانت الجزائر مثل بقية

الأوطان العربية يتقاسمها تيار الإحياء وتيار التجديد، وقد بلغ " الانحطاط درجة أن صار أدباؤها يشتقون استعاراتهم وكناياتهم من الفنون التي لا صلة لها بالأدب، مثل الفقه، والتوحيد. فقد نزل الشّعر الجزائريّ في درجات الخمول والجمود... هاوية بعيدة القعر، حتى أن نفخة الحرب الكبرى التي بعثت الأمم النائمة من مرقدها لم تكن كافية لإيقاضه" (حمادي، 2001، ص01)، وأمام هذا الانحطاط وهذا التوزع بين الرغبة في التجديد والرغبة في إحياء التراث، كان الشاعر والناقد الجزائري رمضان حمود سباقا في تبني طرح التجديد كتابة وتنظيرا؛ فقد كانت قصيدة (يا قلبي سنة 1928 م) بيانا شعريا واضحا غير خاضع لبحر معين من بحور الشّعر العربي، وقد وصفت هذه القصيدة بأنها" تجربة شعرية تتميز بكونها قصيدة متعددة الأوزان متغيرة القوافي" (سعد الله، 1983، 3).

ويمكن القول إنّ حمود كان من طليعة الشعريين العرب الذين حاولوا التمرّد على تقاليد الشعرية العربية التقليدية عن وعي نقديّ، وعن ممارسة شعرية جديرة بالدراسة، فقد كانت نظرته للشعر مقرونة بنظرته وتجربته الحياتية، فالشعر وجه من أوجه الثورة، والثورة ضرورة شعرية، وكانت تجربته الشعرية مشفوعة برؤى نقدية ضمنها كتابه" بذور الحياة". تجربة مليئة بالبواعث النفسية الذاتية، والموهبة الخلاقة التي تملكتها شجاعة وجرأة، مستندة على روح الثورة والمكابرة من أجل الوقوف ضد التقليد، وضد كل ما هو سكوني رتيب، وبواعث اجتماعية موضوعية أسهمت في جعل هذا الرجل ينحو منحى تجديديا في مسيرته النقدية (السنوسي، 1926، 178).

وقد عرض في بذور الحياة أهم رؤاه الشعرية، فقد جاء في تعريفه الشّعر مايلي: "قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى، ولو كان خاليا من معنى بليغ، وروح جذابة، وأنّ الكلام المنثور ليس بشعر، ولو كان أعذب من الماء الزلال وأطيب من زهور التلال وهذا ظن فاسد... إذ الشعر كما قال شابلن هو النطق بالحقيقة تلك الحقيقة الشاعر بها القلب، والشاعر الصادق قريب من الوحي" (خرفي، 1985، 42)، وهنا ثار

على المعهود من مفهوم الشعر (الكلام الموزون المقفى)، ورأى أن الشعر الحق هو الناطق باسم المشاعر وباسم الحقيقة والواقع.

تأسست شعرية حمود على إعادة مراجعة مفهوم الشعر وكل ماله صلة بهذا المفهوم، فكان ملامسا للنّظام العام للشعر لا جزء من أجزائه، يفسره تفسيرا باطنيا لا ظاهريا، محاولا نقل الكتابة الشعرية من الشكل إلى الجوهر ومن المظهر إلى الروح، فرسم هدف نقل:" الشعرية العربية من شكل التعبير في تصنيفاتها إلى روح الشّعر الذي لا يحدّه حدّ ولا يضبطه قالب، أليس الشّعر "وحي الضمير والهام الوجدان" و"موج متدفق يقذفه بحر النفس الطامي"، أو ليس الشّعر "تموجات روحانية تخترق القلوب الحية" و"أنْفَسُ هدية تقدمها الطبيعة الهادئة إلى القلوب الكسيرة" و"الجاذبية الساحرة التي تجمع بين النخلة وزهرة الربيع الفاتحةِ أكمامُها" (خرفي، 1985، 45).

وفي طريق ضبط الحدود وتعيين ماهو شعر ومااليس بشعر، يرى حمود أن تداخل الأجناس الأدبية حدود متداخلة، وأن الجامع بين الفنين أكثر مما لايفرقهما، وشفيعه أن الذاكرة العربية في فهمها لماهية الشّعر قد قربت القرآن من الشعر، عندما أتهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر مجنون، يقول حمود: "لو أنّهم قصدوا بالشّعر الوزن والقافية لما قالوا في بداية الدعوة المحمدية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحيات: أنّ القرآن شعر، وأنّ صاحبه شاعر مجنون، مع علمهم أنّه كلام مرسل لا أثر للوزن والقافية فيه" (خرفي، 1985، 13-53)، وبناء على هذا لا يمكن للشعر إلا أن يكون تيارا "كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس، لا دخل للوزن ولا القافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما تحسينات بديعية لفظية، اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة، وانما حفظاً وصيانة من التلاشي والسيلان" (خرفي، 1985، 101) .

إن الخطاب الشعري خطاب لغوي في المقام الأول، ثم بناء موسيقي في المقام الثاني، يفترض فيه التجديد والتطور في كل وقت وآن، فقد شهد عصر الأندلس تجاوز "أغلال القافية التي أنَّ الشعرُ تحت ضغطها الحديدي وأدخلت تحسينات في الوزن المعروف، فإنها لم تتجاوز هذه الحدود المادية " (خرفي، 1985، 53)، كما شهد الشعر عند بداياته عدم تمكن الأوزان والقوافي من الشاعر بل كانت تجرى مجرى المحاكاة، فالموسيقى عملية تابعة للإبداع.

إن الشعر صانع القوانين ومتمرد على القيود، هو من يخلق القوانين لا هي من تخلقه، ومن ثمة فإن الشاعر"حرّ وهو يضع قوانينه وهو فوق القوانين الشعرية وليست فوقه، هو الذي يضع النظام ولا يضعه النظام" (فاضل، 1984، 296) ، لقد كان الشنفرى وهو من هو في الشعر غير خاضع لقانون الأوزان والقوافي، وكذلك من قبله ومن بعده، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي ليستنبط من الشّعر قواعد الأوزان والقوافي لا ليكبل من جاء بعده، بل ليريهم فرادة الخطاب الإبداعي ومكامن التفوق فيه، فيضع "نظامه ثم يصبح هذا النظام قانوناً يهتدي به الآخرون ثم يغيرونه" (فاضل، 1984، 297)، وفق هذه الرؤية حاول رمضان حمود كتابة نماذج شعرية مطبقا ما نظّر له، فجاءت أشعاره تارة مقطوعات لا أثر للقافية فيها، وتارة أخرى مقطوعات لا وزن فيها حاملة لقافية فقط.

2. التجديد في الخطاب الشعري عند رمضان حمود:

تنطلق الكتابة الشعرية في خطاب رمضان حمود الابداعي من فلسفة عميقة مؤداها أن" الفلاسفة والشعراء من سلالة واحدة، وكلهم يتغذى بلبان الطبيعة، ويترعرع في حجرها" (حمود،1928، 55)، وبمقتضى الجمع بين الوجود ممثلا في الطبيعة، وبين الفلسفة بوصفها تعقلا، والشعر فعل إبداعي، يسعى الشعر إلى الانخراط في فهم الوجود وتعقله، يقول رمضان في قصيدة "أيها العرب والخطوب جسام" (الجابري، 2009، 342):

إنْ يَكُنْ للحَيَاةِ فيكُمْ طَمُوحٌ فَمَتَى النُّطق والسُّكُوتُ حَرَامُ
أُنْفخ الروح في القلوب بِشِعْرِي لَيْتَ شِعْرِي وهَلْ تَقُومُ النِّيَام؟
أُضْرِم النَّار في القلوب بِشِعْرِي فَلِشِعرِي في كُلِّ نَفْسٍ ضِرام
أرسِل الشِّعْرَ للنِّضَالِ إذا ما هُضِم الحقُّ واستحِلَّ ذِمام
ليت هَلْ يَنْهَض الكَلَامُ بِقَوْمٍ لَمْ يَقْدِرْ هُدَاهُم العلام

لا تقتصر وظيفة الشعر في تعقل الوجود بل أيضا في تشييد الذائقة الجمالية، وتغيير طبائع المتلقي بكسر أفق توقعه، وتربية الحس الفني فيه، والرقي بمناقب الأخلاق والقيم في ذاته، فالشاعر المقتدر شخص متوقد البصيرة، باحث عن الحقيقة، يشعر بما لم يشعر به غيره، ولعل هذا الحظ فيما وهبه الله من " عقل صحيح ورأي مليح ولسان فصيح" هو جوهر الشعر ولبابه، فتعقل الوجود ركن ركين في أصول الشعر، فالشعر دعوة للحياة، واستغلال أقصى جمال كامن فيها، الشعر توصيف للوجود الفنان الجميل، يقول رمضان حمود في قصيدة "علام نلوم الدهر" (خرفي، 1985، 89-90):

عَلَام نَلُومُ الدَّهْر واللهُ عَادِلٌ ونَنْسبُ للأيَّامِ ما هُو بَاطِلُ؟
ونَمْلأُ وَجْهَ الأَرْض رَطْباً ويَابِسًا بُكَاءً وهَلْ تُجْدِي الدُّمُوعُ الهَوَاطِل؟
ونَبغِي حَيَاة العِزِّ والجَهْلُ دَأْبُنا وهَلْ نَالَ عِزًا في البَسِيطَة جَاهِل؟
فَكَيْفَ يَقِينَا اللهُ من سُوءِ بَطْشِهِ ومَا هُوَ عَمَّا يَفْعَلُ العَبْدُ غَافِلُ

وعلى هذا لم يكن رمضان حمود صاحب تصور شكلي للأدب والشعر؛ بل كان من دعاة روحه ومضامينه، لأنه كتابة غائية تسعى لتغيير الواقع، أدرك الشاعر هذا أو لم يدركه، فالشعر بحث عن المعنى الذي يتجاوز إطار البنية الشكلية، فقد كانت آراؤه في "بذور الحياة" تعبر عن روح تواقة للتغيير، مؤمنة بضرورته، ومنطلقة من داخل معترك

الواقع اليومي؛ وهنا نجد حمود يصدح شعرا في عدم إيمانه بالجمود والركون للشكل في الشعر عندما يقول (خرفي، 1985، 43) :

أتوا بكلام لا يحرك سامعا عجوز له شطر وشطر هو الصدر

وقد حشروا أجزاءه تحت خيمة كعظم رميم ناخر ضمه القبر

وزين بالوزن الذي صار مقفى بقافية للشط يقذفها البحر

وقالوا: وضعنا الشعر للناس هاديا وما هو شعر ساحر .لا. ولا نثر

ولكنه نظم وقول مبعثر وكذب وتمويه يموت به الفكر

ومع وضوح نزعته الرومنسية في كتاباته الشعرية وغلبة المسحة الحزينة تجاه واقعه، إلا أنه لم يكن صاحب نزعة تشاؤمية، ترى كل ما في الوجود أسودا، فقد قال :" إني لتعروني هزة، وينفطر قلبي، وتنشق كبدي، وأغيب عن رشدي، وأحس بألم شديد يدب بين جوانحي دبيب الموت في الحياة كلما خلوت إلى نفسي، ونظرت إلى حالتنا الحاضرة....وكلما قارنت بيننا وبين أجدادنا الفاتحين النبلاء" (حمود، 1928، 11) ، وهكذا ظل خطابه الشعري وسطا بين الرومنسية المحبة للطبيعة والحياة، وبين المسحة الحزينة غير الغارقة في التشاؤم والسوداوية، وقد عبر عن هذا أيضا في قوله الشعري (حمود، 1928، 104):

فقلت لهم لما تباهوا بقولهم: ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر

وليس بتنميق وتزويرعارف فما الشعر إلا ماحن له الصدر

فهذا خرير الماء شعر مرتل وهذا غناء الحب ينشده الطير

فذاك هو الشعر الحقيق بعينه وإن لم يذقه الجامد الميت الغر

3. الشعر باب من أبواب إصلاح المجتمع:

ينتمي رمضان حمود إلى المدرسة الرومنسية التي جاءت في سياق انطلاق الحركة الإصلاحية في الجزائر، وهو السياق الذي تميز بمحاولة الشعراء تلوين شعرهم بألوان مذهبية عدة " واستطاعوا أن يستجيبوا ويتفاعلوا مع بعض الاتجاهات التي قد تعتبر جديدة آنئذ كالاتجاه الوجداني الرومانسي "(ناصر، 2006، 31)، وقد كان الشعراء الرومنسيين الجزائريين متأثرين بنظرائهم في المشرق العربي مثل "جماعة أبولو" و"شعراء المهجر"، وكانت أشعارهم بدءا من رمضان حمود، ومفدي زكرياء، وأبو القاسم سعد الله، والطاهر بوشوشي، ومبارك جلواح العباسي، وأحمد سحنون، ومحمد الأخضر السائحي، وعبد الكريم العقون، وأحمد معاش الباتني وغيرهم، أشعارا رومنسية عالجوا من خلالها قضايا الفرد والمجتمع، وقضايا الطبيعة، ومسائل المرأة والحب، إضافة إلى النزعة الثورية التي هي من أخص خصائص الإتجاه الرومانسي.

وقد كان الرومنسيون شعراء ثائرون؛ تتملكهم الرغبة في تحرير مجتمعاتهم وإصلاحها، كونهم يعبرون عن العاطفة قبل كل شيء. حيث إن طبيعة الشاعر الرومانسي العاطفية وتوقه الدائم للحرية جعله يصبغ شعره بالدعوة إلى التحرر من قيود المجتمع وسلطته التي تعيق الفرد عن التطور والرقي: "وهي وثيقة الصلة بالشخصية الرومانسية فقد خلقت هذه الشخصية لها أملا جعلتها تضيق ذرعا بالمجتمع الذي يعيش فيه وبما يسوده من قيود " (غنيمي هلال، د ت،123)

وهذا الهروب من التقاليد البالية أملاه الانفعال العاطفي بكل ما فيه من حماس واندفاع، ومن ثمة لا يستطيع الخضوع لقانون عرفي أَلف عليه آباؤه وأجداده، دون أن يخون ذاته التي يؤمن بها، ويولى لها المكانة المرموقة؛ تبعا لهذا وجب أن يكون الأدب المعبِّر عن هذا الشاعر الرومنسي حرا كذلك، متمردا عما اعتاده القراء وألفوه، هذا ما يشفع لرمضان حمود ومن معه من الأدباء والشعراء الرومانسيين الدعوة باستمرار إلى

التحرر من القوالب الجاهزة والقواعد الصارمة، وهذا الموقف من الإبداع الفني هو ذاته الموقف من الإصلاح وقضايا المجتمع، فقد كانت الرومانسية ثورة على الكلاسيكية التي تفرض القوالب والأطر القديمة في كل شيء.

ونشير هنا إلى أن كثيرا من الدارسين الجزائريين لا يستعملون كلمة الشعر الرومنسي أو الأدب الرومنسي، ظنا منهم أن لفظة رومنسية تعادل وتكافئ لفظة وجدانية، بينما تعد الرومنسية فلسفة متكاملة في الحياة والمجتمع؛ يقول محمد ناصر:" نود أن نشير إلى أنه ينبغي أن لا نتصور أنه قد وجدت في الشعر الجزائري مدرسة، أو مذهب رومانسي بالمفهوم الدقيق للكلمة، فإن الرومانسية كما عرفتها أوروبا، كانت فلسفة متكاملة في الحياة والمجتمع، والدين، وغيرها، بينما ظلت في الجزائر وفي سائر الوطن العربي، مجرد اتجاه لاختلاف العوامل والظروف". (ناصر،85،2006)، وهكذا فالرومنسية حملت فكرا اجتماعيا وأدبيا في الوقت نفسه ومن ثمة: "كل شاعر حمل هذه الصفة عن جدارة واستحقاق هو مبدع في الشعر الوجداني". (بن قينة، 1995، 85)

وما يثبت أن الرومنسية هي مشروع مجتمع قبل أن تكون مدرسة أدبية تلك الأسباب التي أدت إلى ظهورها في أوروبا؛ وأخصها الثورة على تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والتطلع للإصلاح وللحرية، وهي نفسها الأوضاع التي سادت الجزائر أيضا، فقد فرض المستعمر الفرنسي ظروفا قاهرة على الجزائريين، وتدنى المستوى الاجتماعي للفرد الجزائري، وكُبتت الحريات وقهر الشعب وضاعت حقوقه السياسية والاقتصادية، وهو ما جعل من الشعر الرومانسي يحمل مشروع الثورة أدبيا واجتماعيا، وقد عبر عن هذا الفكر الضابط الذي وضعه النقاد حتى يسمى الشعر شعرا رومنسيا؛ وهو ضرورة العناية بالفرد والمجتمع، وبمختلف القضايا المتعلقة بهما.

ويمكن التأريخ لبداية الحركة الرومنسية في الجزائر ببعض الأشعار التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى مع بداية الوعي بالواقع الاجتماعي والسياسي. (ناصر،2006،

88)، فقد كان المجتمع الجزائري مضطهدا تحت نير الاستعمار والذي خلف له الفقر والدمار، مثله مثل كل الشعوب المستعمرة، وعلى هذا سعى الشعراء إلى التعبير عن واقع المجتمع، ومن ثمة طغت على أشعارهم مسحة من الحزن والأسى، فامتلأ شعرهم بالسوداوية الداعية للانعتاق، والدعوة إلى الثورة على هذا المستعمر الذي قيد الحريات، وكمم الأفواه، وهي دعوة صريحة للانتقال من نص الأدب إلى نص المجتمع من خلال تهييج مشاعر الكره والنفور من هذا المستعمر، الذي أحرق كل جمالية في الكتابة والتأليف.

وفي سياق لمسة الحزن والسوداوية نجد الشاعر رمضان حمود في قصيدته " يا قلبي" يقول:

أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان

ونصيبك من الدنيا الخيبة والحرمان

أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا، وغير كبار

أنت ياقلبي مكلوم، ودمك الطاهر يعبث به الدهر الجبار

ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة

وقل اللهم إن الحياة مره

أعني اللهم على اجتراعها

وأمددني بالقوة فإنني غير قادر على احتمالها

اللهم إنها مره ثقيلة فليس لي فيها طريقا. (ناصر،2006، 218)

إن كلمات من قبيل: الألم والأحزان، الخيبة والحرمان، تشكو هموما كبارا، يا قلبي مكلوم، ودمك الطاهر، كفيلة بأن تجعل النص حزينا كئيبا، تحمل تعبيرا صادقا عن مرارة الحياة التي يعيشها، وعلى الظلم الذي يعيشه، كما يحمل النص توقا وشوقا للانعتاق كرسها ابتهالات وأدعيه يرجو من خلالها الخلاص، وهكذا تعرض رومانسية رمضان حمود

الرغبة في التحرر وتوصيف واقع الحال، فنقل طلبات التغيير والإصلاح من شكل النص إلى الحياة الاجتماعية وقسوتها.

لقد ساد المذهب الكلاسيكي أوروبا منذ القرن السابع عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر، وامتد في بعض البلدان الأوروبية إلى جزء من القرن التاسع عشر، فأصاب الأدب الجمود والركود، وهو ما دفع بالنقاد والأدباء إلى الثورة على هذا الجمود، فقام المذهب الرومانسي على محاولات استثمار سلبيات المذهب الكلاسيكي، ولم يتم لهذا المذهب الانتصار إلا بعد أن هوجمت حصون المذهب الكلاسيكي على يد الأدباء والفلاسفة، من دعاة التجديد طوال القرن الثامن عشر. (غنيمي هلال، د ت، 11)، وعلى هذا الأساس كان أدباء العرب والجزائر يتبنون المذهب الرومانسي الذي خلص الآداب الأوربية من الجمود، عسى أن يخلص الحياة الثقافية والاجتماعية العربية والجزائرية من الجمود أيضا.

وقد واجهة هذا المذهب الكلاسيكي عديد الحملات النقدية والتجريحية بوصفه مذهبا معارضا لمحاولات التجديد، ومذهبا متقوقعا على مجموعة من القيم التي سادت حينا من الدهر، وكانت كل هذه الحملات المناوئة للكلاسيكية هي التي مهدت السبيل لظهور الرومانسية. (بوبعيوّ، 1995،126)، غير أن سمات الاتجاه الرومانسي سيطرت على عقول شعراء هذا المذهب حتى ثاروا ضد الكلاسيكية، ردا عليها في فلسفتها الفنية الجامدة، وعلى أن: " الكلاسيكية تقوم أساسا على التقليد والاتباع، وخاصة تقليد النماذج اليونانية والرومانية، فإن الرومانسية ثارت على هذه الرؤية ودعت لأن يكون الإبداع نابعا من مبدئها الأساسي وهي "الحرية"، وبقدر ما كان الكلاسيكيون يحكمون العقل والمنطق في كل شيء، ويؤمنون بالرصانة والاعتدال في رؤاهم ومواقفهم، فإن الرومانسيين على عكس من ذلك يؤمنون إيمانا قويا بالانطلاق والتحرر حتى ترتاد النفس أفاقا واسعة رحيبة" (ناصر، 2006، 84-85)

إن الرومانسية أهم حركة أدبية في تاريخ الأدب الأوروبي والعالمي التي حاولت الانطلاق من الأدب للوصول إلى المجتمع، بما اشتملت عليه من مبادئ وخصائص تلحظ الظواهر وتحاول تغييرها، قد يسرت للإنسان الحصول على حقوقه إذ مهدت للثورات وعاصرتها ثم كانت خطوة في سبيل نشأة المذاهب الأدبية المختلفة فيما بعد (غنيمي هلال، د ت، 12)، وهو ما سعى إليه الرومنسيون العرب وخاصة الثائر رمضان حمود الذي انطلق من واقع الجزائر التعيس وقت ذاك وحاول أن يغير بالكلمة وأن الكلمة الحاملة للتغيير.

4. خاتمة:

أوصلتنا الدراسة إلى النتائج الآتية:

1/ يمثل رمضان حمودا نموذجا من نماذج الشخصية الجزائرية الثائرة، التي حاولت تتبني فكرة الإصلاح انطلاقا من إصلاح الراهن الشعري والأدبي ثم الإصلاح الاجتماعي، بوصف الأدب قاطرة المجتمع.

2/ كان منطلق الإصلاح الأدبي في تصور رمضان حمود هو إعادة صياغة مفاهيمه الأساسية، بدءا بمفهوم الشعر الذي لم يعد الكلام الموزون المقفى الدال على معنى، بقدر ما هو رسالة اجتماعية إصلاحية خالدة، وتغيير هذه المفاهيم وإصلاحها يعني نفي الصفة الشكلية للأدب وجره إلى معترك الحياة والواقع اليومي بما يكرس الرغبة في كسر الجمود والركون للشكل المصاحب لمفهوم الشعر.

3/ مثلت الكتابات الشعرية طرحا عملا تطبيقيا لتنظيرات حمود، حيث اتسمت الكاتبة الشعرية لرمضان حمود بوضوح الرؤية التجديدية، من خلال الثورة على نظام الأوزان والقوافي في بعض المقاطع الشعرية، والنظرة السوداوية ذات المسحة الحزينة التي تكرس دعوة حمود الشعراء لتصوير الواقع كما هو.

4/ تبنى رمضان حمود فكر المدرسة الرومنسية التي جاءت في سياق انطلاق الحركة الإصلاحية في الجزائر، وقد كان الشعراء الرومنسيين الجزائريين متأثرين بنظرائهم في المشرق العربي مثل "جماعة أبولو" و"شعراء المهجر"، فكانت أشعارهم رومنسية عالجوا من خلالها قضايا الفرد والمجتمع، وقضايا الطبيعة، ومسائل المرأة والحب، إضافة إلى النزعة الثورية التي هي من أخص خصائص الاتجاه الرومانسي.

5. قائمة المراجع:

بن قينة،عمر. (1995)، *في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلام*. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

بوبعيو، بوجمعة. (1995). *موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبولو، دراسة في الخصائص الموضوعية والفنية*.(ط1). منشورات جامعة قار يونس بنغازي ليبيبا.

حمادي، عبد الله. (2001). *أصوات من الأدب الجزائري*. منشورات دار البعث. قسنطينة.

حمود، رمضان.(1928). بذور الحياة.مكتبة الاستقامة.تونس.

خرفي، صالح.(1985).حمّود رمضان. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.

سعد الله، أبو القاسم.(1983). *تجارب في الأدب والرحلة*. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.

غنيمي هلال، محمد. (د ت) . *الرومانتيكية*. نهضة مصر للطباعة والنشر. مصر.

فاضل، جهاد.(1984). *قضايا الشّعر الحديث* .(ط1). دار الشروق.بيروت لبنان.

ناصر،محمد. (1985). *رمضان حمود حياته وآثاره*، المؤسسة الوطنية للفنون . الجزائر.

ناصر،محمد. (2006) .*الشعر الجزائري الحديث*.(ط2).دار الغرب الاسلامي. بيروت.

محمد صالح الجابري(2009): *الأدب الجزائري المعاصر*. (ط1). منشورات السهل. الجزائر.

الزاهري، محمد الهادي السنوسي. (1926). *شعراء الجزائر في العصر الحاضر*. المطبعة التونسية.

الكبيسي، طراد. (1973).*موقف الشاعر من قضايا التحرّر والوحدة في الوطن العربي*. اتحاد الكتاب العرب. سوريا.